المبحث الثاني

أثر السياق القرآني فِي

تحديد وتحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي

ونعني بالمشترك اللفظي «لفظ وضع بأوضاع متعددة لأكثر من معنى واحد وبتعبير أدق ما اتحد لفظه وتعدد وضعه ومعناه»[1]، أي: إنّ هناك لفظ يشترك فيه معنيين أو أكثر على التساوي فِي الاستحقاق الدلالي، ويأتي دور السياق فِي تحليل نظري دقيق فِي تحرير أو تحديد المعنى الدلالي للمشترك اللفظي.

والسياق الذي يحدد اللفظ أو يحرره سواء أكَانَ سياق مقتضى الحال والمقام والذي نعني به الواقع الخارجي المحيط بالنص أو السورة كاملة، وما يسمى بالسياق الموضوعي، له من الأهمية ما للسياق اللغوي داخل النص، حيث يرشد إلى تعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، أو تنوع الدلالة واحتمال المعنيين معاً، فأثر السياق مباشر فِي تحليل دلالات النص القرآني وتعيينها.

أ – أثر السياق القرآني فِي تحديد المعنى المراد من المشترك اللفظي:

السياق له أثر فِي تحليل المعنى وتعيينه المقصود، والمراد من المشترك اللفظي وبيان المراد منه يكون من معنى يفهم من السياق الموضوعي واللغوي وشيئاً من الحقائق التي يتضمنها السياق العام أو الخاص.

فالسياق العام يمدنا بالمحدد الدلالي الأول، ويأتي بعده دور السياق اللغوي بعد تقريب فهم السياق العام، حيث يحدد معلماً جديداً من معالم المعنى[2]. ولا

---

(١) أصول الفقه فِي نسيجه الجديد: ٤٦٦.

(٢) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٦٤، ٩٥.

يستعمل اللفظ (المشترك اللفظي) إلاّ مع قرينة تعيّن المراد من معانيه المشتركة، لأنّ فِي المشترك اللفظي يكون أحد المعنيين أولى من الآخر فِي ارتباطه فِي اللفظ الواحد، والسياق لا يقوم ويعتمد على كلمة تنفرد وحدها فِي الذهن، وإنّما يقوم على تركيب يوجب الارتباط والتلاحم بين أجزاء الجملة، فيخلع على اللفظ المعنى المناسب، والقرينة التي ارتبطت مع أجزائه التي حواها السياق هي التي تعين فِي إيجاد المقصود والمراد من الآية أو الآيات[1].

ومن أمثلة أثر السياق فِي تحديد المعنى فِي المشترك اللفظي، ما ورد فِي قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾[2]، فلفظ (كلالة) مصدر من الفعل الثلاثي (كلّ)، وَهُوَ لفظ مشترك لدلالات عدة، ذهب المفسرون فِي تأويلها إلى معانٍ عدة، منها: تأتي الكلالة أولاً: بمعنى الميت الذي لم يترك ولداً ولا والد[3]، أي: إنّ الدلالة تقتصر على الميت دون غيره من الورثة، والمعنى الثاني بمعنى الوارث المباشر، لأنّ الكلالة مأخوذة من التكلل بمعنى الإحاطة أي: أقاربه الذين يحيطون به كالة كليل[4]، وتأتي بمعنى ثالث هُوَ الوارث من الأقارب الأباعد[5]، والكلالة تأتي بالمعنى الرابع على المال الموروث[6]، لكن الأقرب لمعنى (الكلالة)

---

(١) ينظر: جواهر البلاغة فِي المعاني والبيان والبديع: ٢٩؛ وينظر: الدلالة والمعنى: ٢٦٤.

(٢) سورة النساء: ١٢.

(٣) ينظر: أحكام القرآن: ٥٩/٥؛ وينظر: الدر المصون: ٣٢٥/٢؛ وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥٩/٥.

(٤) ينظر: التبيان فِي إعراب القرآن: ٩٩.

(٥) ينظر: الدر المصون: ٣٢٥/٢.

(٦) ينظر: التبيان فِي إعراب القرآن: ٩٩؛ ينظر: الكشاف: ٤٧٥/١.

هي الميت نفسه، لا ورثته ولا ماله ولا أقاربه الأباعد، لأنّ اللفظة (الكلالة) مشتقة من التكلل، والإحاطة، وأنّ دلالة (كلالة) مع كسر الراء فِي (يورث) تختلف عمّا هي عليه مع فتحها، لأنّ مع فتحها تدل على المال الموروث، أمّا مع كسر الراء تشديداً وتخفيفاً تدل على الميت، وجمهور الفقهاء والمفسرين أجمعوا على الأخذ بالمعنى الأول القائل بأنّ (الكلالة) تدل على الميت نفسه لا ورثته ولا ماله ولا أقاربه الأباعد، لأنَّه يوصف بهذه الحالة إذا ترك مالاً وليس له أب ولا ولد[1].

فدور السياق هنا إحكام المعنى وذلك فِي توجيه دلالة الأسلوب بما لا يدع مجالاً لتعدد تأويل المعنى، وذلك بحصر الدلالة بمعنى واحد يتحدد به اللفظ، واستبعاد الاحتمالات الممكنة الأخرى[2] جعل تناسق العبارة مع ترتيب اللفظ في توضيح المعنى المطلوب من خلال تحديد دلالة السياق ودورها في إظهار المعنى.

وَفِي قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[3].

حيث فسّر العلماء لفظ (أنى) بمعنى (كيف)، وذلك بالقرآن السياقية اللغوية وغير اللغوية (سياق الحال والمقال)، ولفظة (أنّى) تأتي بمعنى (أين) و(متى)، فقد انحرف المعنى إلى دلالة جديد تنتجها دلالة السياق المقالي وَهُوَ لفظ (حرثكم)، فحدد المعنى بهذه القرينة السياقية، فإنّ إتيان النساء فِي غير موضع التناسل لا يوافق كون النساء حرثاً لأزواجهن، وأنّ موضع الحرث

(١) ينظر: أثر الدلالة اللغوية فِي التأويل عند المفسرين: ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) ينظر: السياق والمعنى: ١٠٦.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٣.

موضع الولد، والله تعالى أباح الإتيان فيه فِي غير وقت المحيض، وإباحة الإتيان فِي موضع الحرث يشبه أن يكون تحريم إتيان غيره[1] والدليل على ذَلِكَ قوله تعالى ما سبق الآية من قول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ﴾[2]، «فإنّ السياق يقتضي أن يكون الغرض إباحة ماعدا محال الأذى، والمراد تعميم الإباحة فِي الأحوال لا المحال، فيكون المراد قصر الاتصال بالمرأة على الموضع الذي هُوَ طريق النسل، وإباحة إتيانها على أي وجه من وجوه الإتيان لذلك الموضع المأتيّ»[3].

فالكلمة لا تعطي معنىً بمعزل عن السياق اللغوي الأكبر أو بعض العناصر الخارجية الأخرى دلالة ما، فيحتاج توجيه المعنى إلى عناصر سابقة أو لاحقة له أو خارجة عنه، وهذا التناسق والترتيب في الآية انعكس على بيان قوّة الأحكام الشرعية وإحكامها وضبطها من خلال الفهم السليم لمقتضى مجيء سياقها ونسقها [4].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[5]، فلفظة ﴿عَسْعَسَ﴾ مشترك بين إقبال الليل وإدباره، وهنا يأتي دور السياق فِي تحديد دلالة أحد المعنيين، فجاءت الآية اللاحقة تعصين معنى الإدبار للفظة ﴿عَسْعَسَ﴾ كقرينة سياقية لبيان ذَلِكَ، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فبالسياق

(١) ينظر: أحكام القرآن: ١/١٩٤؛ وينظر: نظرية السياق: ١٣٥.
(٢) سورة البقرة: ٢٢٣.
(٣) نظرية السياق: ١٣٥.
(٤) ينظر: السياق والمعنى: ١٠٧.
(٥) سورة المدثر: ١٧-١٨.

يتبين أنّه الإشراق يأتي بعد إدبار الظلمة[1] فهذا التناسق السياقي من خلال اللفظتين ﴿عَسْعَسَ﴾ ﴿تَنَفَّسَ﴾ حدد دلالة المعنى ووضحه وأجلاهُ.

إذن فالسياق هُوَ محصلة بيان المعنى المراد من المشترك اللفظي الناتج عن تطور الأصل الدلالي لكثير من ألفاظ اللغة بسبب الوضع والاستعمال المجازي، وَهَذَا راجع إلى الأصل الدلالي للفظ لما يحمله من خصائص دلالية لا يمكن أن تتطابق جميعها مع خصائص لفظ آخر[2].

ب- أثر السياق القرآني فِي تحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي:

تتقارب بعض الألفاظ فِي اللغة العربية تقارباً يكاد يصل فِي بعض الأحيان إلى درجة الترادف غير التام، فيكون لفظ من ألفاظ النص مشتركاً، لا يعرف معناه على التحديد، فيؤدي ذَلِكَ إلى عدم استقلال اللفظ بإفادة المعنى، فيبقى بينهما بعض الفروق الدقيقة التي تميز بعضها عن بعض، الأمر الذي يجعل علماء الأصول والتفسير، والفقه والبلاغة، يبحثون عن القرائن اللفظية والمعنوية والحالية للكشف عن دلالته[3].

وهناك ألفاظاً مشتركة تؤخذ على إطلاقها فيما تدل عليه من معاني، وَهَذَا يحرره أثر السياق فيها، وتنوع الدلالة يدل عليه السياق، فالسياق من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم.

وتربط دلالات الألفاظ علاقات متشابكة ومشتركة تحمل على إطلاقها فِي إفادة المعنى داخل النص، يسمح به السياق بأنواعه اللغوية وغير

---

(١) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤.

(٢) ينظر: جواهر البلاغة: ٣٠؛ وينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٣٧.

(٣) ينظر: من الإعجاز اللغوي فِي القرآن: ٣٦؛ وينظر: نظرية السياق: ١٣٤.

اللغوية[1]. ومعنى تحرير المعنى المراد من المشترك اللفظي هُوَ أخذ المعنيين مطلقاً للفظ المشترك، أو هُوَ تعميمه للمعنيين فِي سياق واحد، واعتماده كلاهما سواء أكانت المعاني حقيقية أم مجازية[2]، ومن أمثلة ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[3]، فلفظ ﴿قُرُوٓءٍ﴾ مشترك بين الطهر والحيض حيث يحتمل السياق القرآني المعنيين[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾[5]، ولفظ ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ يطلق بالاشتراك على القديم، وعلى المعتق من الجبابرة وعلى الكريم، وكلها قيل به فِي الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾[6] يدل على قدم وضع البيت[7].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[8]، فالخلال هنا لفظ مشترك يحتمل أن يكون جمع (الخلة)، ويمكن أن تكون مصدر (خالّ) وهي من المصادقة، وتحتمل أن تكون مصدر (خاللت) أيضاً الدال على المشاركة،

---

(١) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٣.

(٢) ينظر: نظرية السياق: ١٤٠.

(٣) سورة البقرة: ٣٢٨.

(٤) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤؛ وينظر: أصول الفقه فِي نسيجه الجديد: ٤٦٧.

(٥) سورة الحجّ: ٣٩.

(٦) سورة آل عمران: ٩١.

(٧) ينظر: علم الوجوه والنظائر: ٧٤.

(٨) سورة إبراهيم: ٣١.

وَقَدْ جاء بها بالجمع أو بالمصدر الدال على المشاركة[1] فيمكن إطلاق المعنيين على لفظ الخلال فِي سياق الآية الكريمة. وهذه الألفاظ من خلال المتابعة يجد القارئ مقدار التناسق والترتيب في مجيئها حتى أنَّ القارئ ليجد قيمة هذه التعابير والكم الهائل من المعاني مضغوط بالألفاظ القليلة وهذا كله يتأتّى من خلال مجيئها في سياق عجيب ومنظم هو من عند خبير عليم.

(١) ينظر: من أسرار البيان القرآني: ١٩١، ١٩٢.